

قال رحمه الله :

[وخرج عليه السلام لعشر خلون من رمضان في عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، وقد ألفت مزينة وكذا بنو سليم على المشهور رضي الله عن جميعهم . واستخلف عليه السلام على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين . ولقيه عمه العباس إلى ذي الحليفة وقيل إلى الجحفة فأسلم . ورجع معه عليه السلام ، وبعث ثقله إلى المدينة . ولما انتهى عليه السلام إلى نيق العقاب جاءه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية أخو أم سلمة مسلمين فطردهما ، فشفعت فيهما أم سلمة ، وأبلغته عنهما ما رققه عليهما ، فقبلهما فأسلما أتم إسلام رضي الله عنهما بعدما كانا أشد الناس عليه عليه السلام . وصام عليه السلام حتى بلغ ماء يقال له الكديد ، بين عسفان وأمج من طريق مكة ، فأفطر بعد

العصر على راحلته ليراه الناس ، وأرخص للناس في الفطر ، ثم عزم عليهم في ذلك ،
فانتهى ﷺ حتى نزل بمر الظهران فبات به [.

هنا أخذ يذكر الإمام بن كثير رحمه الله تعالى خروج النبي عليه الصلاة والسلام إلى مكة فقال
رحمه الله :

((وخرج ﷺ لعشر خلون من رمضان)) ؛ أي أن هذا الخروج من المدينة كان في شهر
رمضان المبارك .

قال : ((في عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب)) ؛ وهذا يشهد
له ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : ((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ خَرَجَ فِي رَمَضَانَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ عَشْرَةُ آلَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِ سِنِينَ وَنِصْفٍ
مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ)) . وهذا يستفاد منه فائدة وهي : أن أعداد المسلمين تزايدت تزايداً كبيراً
بعد صلح الحديبية ، وكان هذا الصلح فتحاً مبيناً كما سماه الله ﷻ بذلك ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا
مُبِينًا ﴾ [الفتح: ١] ، فعلى إثر هذا الصلح والهدنة التي تمت بين المسلمين وكفار قريش وأن يأمن
الناس بين المسلمين وبين قريش فلا يكون قتال ، هذا أتاح للنبي عليه الصلاة والسلام فرصة
عظيمة لبعث البعوث وإرسال الرسل وإرسال الدعوة ، فتزايد الناس وكثر دخولهم في دين الله
ﷻ ، ولهذا بلغ جيش المسلمين هذا العدد لما خرج عليه الصلاة والسلام لفتح مكة .

قال : ((وقد ألفت مزينة)) ؛ معنى ألفت : أي بلغت عدتهم ألف مقاتل ، مزينة : أي
قبيلة مزينة .

((وكذلك بنو سليم)) ؛ أي ألفت بنو سليم فكانت عدتهم ألف مقاتل .

((على المشهور رضي الله عن جميعهم)) .

قال رحمه الله : ((وقد استخلف ﷺ على المدينة أبا رُهم - الغفاري - كلثوم بن حصين)) ؛ وهو من أهل بيعة الرضوان ، فاستخلفه صلوات الله وسلامه عليه على المدينة عندما خرج إلى مكة .

قال : ((ولقيه عمه العباس إلى ذي الحليفة ، وقيل إلى الجحفة)) ؛ ذي الحليفة معروفة على مقربة من المدينة ، والجحفة ميقات أهل الشام وهي على الساحل قريبة من رابغ .

((فأسلم)) ؛ كذا ذكر هنا رحمه الله تعالى ، وقد جاء عن ابن هشام في سيرته ونقل ذلك الحافظ بن كثير رحمه الله تعالى في كتابه البداية والنهاية قال : "لقية بالجحفة مهاجراً بعياله وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقاية رسول الله ﷺ" ؛ في هذه الرواية كان على الإسلام وكان مقيماً في مكة على سقاية رسول الله ﷺ والرسول عنه راضٍ صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : ((وبعث ثقله إلى المدينة)) ؛ والمراد بالثقل أي الأهل والمال ، فلما وصل ولقي النبي عليه الصلاة والسلام بالجحفة وعلى قول آخر بذي الحليفة ، بعث أهله وماله أرسلهم إلى المدينة ورجع إلى مكة مع النبي صلوات الله وسلامه عليه .

((ولما انتهى إلى نيق العُقَاب)) ؛ وهذا موضع بين مكة والمدينة قريب من الجحفة .

((جاءه ابن عمه أبو سفيان ابن الحارث ابن عبد المطلب ، وعبد الله ابن أبي أمية المخزومي)) ؛ الأول ابن عم النبي ﷺ ، والثاني ابن عمه النبي ﷺ .

((أخو أم سلمة)) ؛ أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي تزوج والدها أبو أمية امرأة يُقال لها عاتكة بنت عبد المطلب أنجبت له عبد الله وأيضاً بنتاً اسمها قريبة . فلهذا هو ابن عمه النبي ﷺ عاتكة بنت عبد المطلب ، وتزوج أيضاً أبو أمية امرأة اسمها عاتكة بنت عامر

الكناني أنجبت له أم سلمة زوج النبي ﷺ ، وعليه فإن أم سلمة رضي الله عنها أختاً لعبد الله بن أمية من الأب ، وأم كلٍّ منهما عاتكة . وإذا قرأت في ترجمة أم سلمة رضي الله عنها تجد ذكراً لأُمها عاتكة بنت عامر ، فقد يُشكل عليك ذلك ؛ كيف يُقال أن عبد الله ابن أمية أخ لأم سلمة وهو ابن عمّة النبي ﷺ؟! لكن إذا رجعت إلى ترجمة عبد الله ابن أمية تجد أن أمه أخرى واسمها عاتكة بنت عبد المطلب وهي عمّة النبي صلوات الله وسلامه عليه . وأيضاً في قول عدد من أهل العلم أن أمه عاتكة أسلمت ، ولهذا أوردتها الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في كتابه الإصابة . وللنبي عليه الصلاة والسلام ستّ عمّات أسلم منهن كما مرّ معنا اثنتان أو ثلاث على خلاف بين أهل العلم في ذلك .

قال : ((جاءه ابن عمّه أبو سفيان ابن الحارث ابن عبد المطلب وعبد الله ابن أبي أمية)) ؛ عبد الله ابن أبي أمية كان شديدة العداوة للنبي عليه الصلاة والسلام وقيل إنه هو القائل : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ (٩٠) ﴿ إلى آخر ما ذكر الله في سورة الإسراء ، فكان معانداً ومعادياً للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، لكنه جاء هو وأبو سفيان ((مسلمين)) .

قال : ((فطردهما)) ؛ لما وصلا إليه استأذنا في الدخول عليه فلم يأذن لهما صلوات الله وسلامه عليه لما يعلم من حالهما من أذى وعداوة ، فأراد أن يبين حالهما للناس .

قال : ((فشفعت فيهما أم سلمة ، وأبلغته عنهما ما رققه عليهما)) ؛ قيل إنها قالت : لا تجعل ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك ، فذكرت له كلاماً كما قال بن كثير رحمه الله رققته عليهما .

((فقبلهما ، فأسلما أتم إسلام رضي الله عنهما ، بعد ما كانا أشد الناس عليه ﷺ)) وقصتهما في المستدرک للحاكم بإسناد حسن .

قال رحمه الله تعالى : ((وصام ﷺ حتى بلغ ماءً يقال له الكديد ، بين عسفان وأمج من طريق مكة)) ؛ وعرفنا أن أمج تُعرف الآن بـمُخْلِص .

((فأفطر بعد العصر على راحلته ليري الناس)) ؛ وقد جاء في صحيح البخاري - والحديث في الصحيحين - ((أنه عليه الصلاة والسلام دَعَا بِمَاءٍ فَرَفَعَهُ إِلَى يَدَيْهِ لِيُرِيَهُ النَّاسَ فَأَفْطَرَ)) ؛ حتى يرى الناس أن النبي عليه الصلاة والسلام قدوهم أفطر فيفطرون تبعاً له صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((وأرخص للناس في الفطر ، ثم عزم عليهم في ذلك)) ؛ ففي أول الأمر بعد أن أفطر هو عليه الصلاة والسلام أرخص لهم في الفطر ، ثم عزم عليهم في ذلك لأنهم سيلقون شدة .

قال : ((فأنتهى ﷺ حتى نزل بمر الظهران فبات بها)) ؛ يعني وصل مر الظهران ليلاً فبات بها ، ومر الظهران: وادٍ شمال مكة على مسافة أربعين كيلو متر تقريباً وهو يُعرف الآن بوادي فاطمة ، وفاطمة التي يُنسب لها الوادي هي زوجة أحد الأشراف الذين حكموا مكة فيما بعد .

قال رحمه الله :

[وأما قريش فعَمِيَ اللهُ عليها الخبر ، إلا أنهم قد خافوا وتوهموا من ذلك ، فلما كانت تلك الليلة خرج ابن حرب وبُدَيْل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتجسسون الخبر ، فلما رأوا النيران أنكروها ، فقال بديل : هي نار خزاعة ، فقال أبو سفيان : خزاعة أقل من ذلك . وركب العباس بغلة رسول الله ﷺ ليلتند وخرج من الجيش لعله يلقي أحداً ، فلما سمع أصواتهم عرفهم فقال : أبا حنظلة ! فعرفه أبو سفيان فقال : أبو الفضل ؟ قال نعم

. قال ما وراءك ؟ قال ويحك ! هذا رسول الله ﷺ في الناس ، وا صباح قريش ! قال :
 فما الحيلة ؟ قال : والله لئن ظفر بك ليقتلنك ولكن اركب ورائي وأسلم . فركب وراءه
 وانطلق به ، فمر في الجيش كلما أتى على قوم يقولون : هذا عم رسول الله ﷺ على
 بغلة رسول الله ﷺ ، حتى مر بمنزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما رآه قال : عدو الله ؟
 الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ويركض العباس البغلة ، ويشتمد عمر
 ﷺ في جريه وكان بطيئاً فسبقه العباس فأدخله على رسول الله ﷺ ، وجاء عمر في أثره ،
 فاستأذن رسول الله ﷺ في ضرب عنقه ، فأجاره العباس مبادرة ، فتناول هو وعمر بن
 الخطاب رضي الله عنهما ، فأمره ﷺ أن يأتيه به غداً ، فلما أصبح أتى به رسول الله ﷺ
 ، فعرض عليه الإسلام فتلكأ قليلاً ثم زجره العباس فأسلم ، فقال العباس : يا رسول الله
 إن أبا سفيان يحب الشرف ، فقال ﷺ : " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن
 أغلق بابيه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن " . قال ابن حزم : هذا نص في
 أنها فتحت صلحاً لا عنوة . قلتُ : هذا أحد أقوال العلماء وهو الجديد من مذهب
 الشافعي . واستدل على ذلك أيضاً بأنها لم تخمس ولم تقسم . والذين ذهبوا إلى أنها
 فتحت عنوة استدلوا بأنهم قد قتلوا من قريش يومئذ عند الخندمة نحواً من عشرين رجلاً
 ، واستدلوا بهذا اللفظ أيضاً : " فهو آمن " . والمسألة يطول تحريرها ها هنا . وقد تناظر
 الشيخان في هذه المسألة . أعني تاج الدين الفزاري ، وأبا زكريا النووي . ومسألة قسمة
 الغنائم [.

قال رحمه الله تعالى : ((وأما قريش فعَمِيَ اللهُ عليها الخبر)) ؛ أي جعلهم في عماية عن
 المعرفة بخبر النبي عليه الصلاة والسلام وخبر مجيئه ﷺ إلى مكة .

((إلا أنهم قد خافوا وتوهموا من ذلك)) ؛ يعني كانوا تلك الفترة في خوف وقلق وتوقع أن النبي ﷺ آتٍ إليهم لا محالة ، فكانوا يتربصون وأحياناً يخرج منهم بعضهم ينظر هل قدم النبي عليه الصلاة والسلام أو لم يقدم .

قال : ((فلما كانت تلك الليلة)) ؛ أي الليلة التي وصل فيها النبي عليه الصلاة والسلام إلى مر الظهران .

((خرج ابن حرب وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتجسسون الخبر)) ؛ وهذا يدلنا أن القوم في خوف وقلق وتوتر وتوقع أن النبي عليه الصلاة والسلام قادم ، وهؤلاء الثلاثة الذين خرجوا يتجسسون ويتجسسون الخبر كلهم أسلموا :

١- ابن حرب : أي أبو سفيان صخر ابن حرب سيذكر المصنف رحمه الله تعالى قريباً خبر إسلامه .

٢- بديل بن ورقاء : أسلم يوم الفتح وكان عمره يوم أسلم سبع وتسعين سنة ، يعني مئة إلا ثلاث سنوات ، فبعد هذا العمر الطويل على الكفر بالله يمن الله ﷻ عليه فيسلم ويدخل في دين الله ﷻ . وسيأتي معنا أيضاً أن والد أبي بكر الصديق أسلم في يوم الفتح وكان أيضاً رجلاً مسنناً جيء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو أعمى يقوده ابنه أبو بكر ﷺ وشعره كله أبيض ليس فيه سواد ومن الله ﷻ عليه بالإسلام في مثل هذه السن المتأخرة ، فمثل هذه الأخبار مفيدة جداً للإنسان ، وهذا يستفاد منه أن لا ييأس من بعض كبار السن الذين هم على الكفر أو على معاصي معينة ، بعض الناس يقول "مستحيل أن يتوب مثل هذا" ، أو يُقنط الناس من دعوة مثله يقول "هؤلاء مضوا عمراً طويلاً في حياة الكفر وعدم الإيمان" ؛ هذا غلط ، بل الكبير يُدعى والهداية بيد الله ، قد يكون يتجاوز المئة ويكتب الله ﷻ له الهداية ، فالمطلوب أن تُبذل الدعوة للجميع حتى وإن كبر سنه حتى وإن أمضى عمراً طويلاً ، إن كتب الله ﷻ له هداية يهتدي . ثم منة الله ﷻ عظيمة في هذا الباب أن من

أسلم فالإسلام يجب ما قبله ، سواء ما قبله تسعين سنة ثمانين سنة يجبه الإسلام ، ولهذا قال الحسن لرجل وهو يعظه : "أحسن فيما بقي يُغفر لك ما قد مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما بقي وبما مضى " .

٣ - حكيم بن حزام : أي ابن خويلد المخزومي ابن أخي خديجة رضي الله عنها وأرضاها زوج النبي ﷺ أسلم أيضاً يوم الفتح ، وكان في ذلك اليوم يبلغ سنّه ستون سنة وعاش بعدها أيضاً ستون سنة على الإسلام - مثل نوفل وحسان كما مر معنا - ، وأيضاً جاء عنه ﷺ أنه كان أعتق حال الكفر مئة رقبة ، فلما أسلم أعتق أيضاً مئة رقبة ، وكان سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن أعماله التي قدّمها حال الكفر مثل هذا العتق مثل الكرم مثل الإحسان للناس الخ ، قال : ((أَسْلَمْتُ عَلَى مَا أَسْلَمْتُ مِنْ الْخَيْرِ)) ، وكان ممن شهد بدرًا مع الكفار ، وعرفنا فيما سبق أن عددا كبيرا من رؤوس الكفار تساقطت رؤوسهم في بدر وهلكوا هناك ، فكان يذكر نعمة الله عليه بأن نجاه فيمن نجا ومنّ عليه بالهداية لدين الله ﷻ وأنه لم يهلك مع من هلك في بدر ، فكان إذا أراد أن يحلف بالله يقول "والذي نَجَّاني يوم بدر" .

قال الإمام ابن كثير : ((فلما رأوا النيران أنكروها)) ؛ يعني نار لا يعرفونها ولا يتوقعون وجود مثل هذه النار بهذه الكثافة في هذه المنطقة ، وجاء في بعض الأخبار أن النبي عليه الصلاة والسلام لما نزلوا تلك الليلة أمرهم بأن يأججوا النيران كل في منزله ، حتى إذا جاء مطّلع واطلع يرى جيوش غفيرة وأعداد كبيرة جداً ؛ وهذا أيضاً من الأمور التي تلقي الرعب في العدو .

((فقال بديل : هي نار خزاعة ، فقال أبو سفيان : خزاعة أقل من ذلك)) ؛ لأن النيران التي يرون نيران كثيرة وممتدة ومسافتها طويلة وخزاعة عددهم أقل من ذلك .

((وركب العباس بغلة رسول الله ﷺ ليلتذ وخرج من الجيش لعله يلقى أحداً)) ؛ يعني يستطلع.

((فلما سمع أصواتهم عرفهم)) ؛ لما سمع أصوات هؤلاء الثلاثة أبو سفيان وبُديل وحكيم يتحدثون .

((فقال: أبا حنظلة !)) ؛ وهذه كنية ثانية لأبي سفيان . صخر ابن حرب يكنى بأبي سفيان ويكنى أيضا بأبي حنظلة .

((فعرفه أبو سفيان فقال : أبو الفضل ؟)) ؛ وهذه كنية العباس عم النبي ﷺ

((فقال نعم . قال ما وراءك ؟)) ؛ يعني أخبرنا .

((قال : ويحك ؛ هذا رسول الله ﷺ في الناس ، وا صباح قريش !)) ؛ يعني سيكون لقريش صباح آخر غير الذي اعتادوا عليه وعرفوه ، سيرون شيئا آخر .

((قال : فما الحيلة ؟)) ؛ وأبو سفيان كان من رؤوس الكفار والقادة وخاض معارك مع النبي عليه الصلاة والسلام كان هو القائد فيها . فالآن أدرك أنه على خطر .

((قال : والله لئن ظفر بك ليقتلنك ، ولكن اركب ورائي وأسلم)) ؛ يعني مثل ما يقول العوام "خضّه" حتى يدرك الأمر ، قال أدرك نفسك وإلا إن أدركك النبي ﷺ ستقتل ، لكن أدرك نفسك بنفسك واذهب إليه مسلماً .

قال : ((فركب وراءه وانطلق به)) ؛ يعني إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

((فمر في الجيش كلما أتى على قوم يقولون : هذا عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ . حتى مر بمنزل عمر بن الخطاب)) ؛ المراد بالمنزل : أي المكان الذي نزلوه في الليل ، وفي الحديث : ((من نزل منزلاً)) أي المكان الذي نزلوا فيه ، فالناس في منازل منتشرين في الصحراء .

((فلما رآه - أي عمر - قال : عدو الله ؟)) ؛ معروف عندهم بشدة عداوته .

((الحمد لله الذي أمكنني منك بغير عقد ولا عهد ، ويركض العباس البغلة)) ؛ لأن عمر يريد أن يقتله ، ظفر بعدو الله بغير عقد ولا عهد فانطلق وراءه ليقتله .

قال : ((ويشند عمر في الجري وراءه وكان بطيئاً ، فسبقه العباس فأدخله على رسول الله ﷺ ، وجاء عمر في إثره ، فاستأذن رسول الله ﷺ في ضرب عنقه)) ؛ قال : يا رسول الله ائذن لي في أن أضرب عنقه .

((فأجاره العباس مبادرة)) ؛ بادر العباس إلى إجارة أبي سفيان .

((فتناول هو وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما)) ؛ أي العباس وعمر رضي الله عنهما.

قال : ((فأمره ﷺ أن يأتي به غدًا)) ؛ يعني قال اجعله عندك وتأني به غدًا ، وكان عليه الصلاة والسلام له حكمة في ذلك ؛ حتى يكون أبو سفيان في وسط المسلمين ويرى الجيوش ويرى أيضاً أهل الإيمان والعبادة والتسبيح والتكبير والوضوء والصلاة ... الخ ، فيرى مشاهد لعلها تُحدث فيه تغييراً .

((فلما أصبح أتى به رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام)) ؛ لاحظ لم يعرض عليه الإسلام في تلك اللحظة ، أراد أن يهدأ ويطمئن ويرى المسلمين ويرى أعمال الإسلام عن كثب ، فلما جاء من الغد عرض عليه الإسلام.

((فتلكاً قليلاً)) ؛ يعني تردد .

((فزجره العباس - أي ببعض الكلمات - فأسلم)) .

((فقال العباس : يا رسول الله ! إن أبا سفيان يحب الشرف)) ؛ أي : فاجعل له شيئاً تتألفه به .

((فقال عليه الصلاة والسلام : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن)) ؛ وتنصيبه عليه الصلاة والسلام على أبي سفيان هذا تأليفاً لقلبه ، يعني رجل له مكانته وكان عندهم قائد الخ ، فلما يُخصّ بالذكر ((من دخل دار أبي سفيان)) هذه تجعل نفسه تُقبِل أكثر على الإسلام وترتاح وتطمئن ، وأيضاً جاء في بعض الروايات أنه قال : ((من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن)) ، وقد مرّ معنا ذكر حكيم بن حزام وأنه أسلم يوم الفتح . وهذا الخبر في سنن أبي داود وحسن إسناده الألباني رحمه الله تعالى ، والمرفوع منه له شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قال ابن كثير : ((قال ابن حزم)) ؛ أي في كتابه جوامع السيرة .

((هذا نص في أنها فُتحت صلحاً لا عنوة)) ؛ هناك خلافٌ معروف بين أهل العلم ، هل فُتحت مكة عنوة يعني بقتال ؟ أو فُتحت صلحاً بدون قتال ؟ قولان لأهل العلم في هذه المسألة ، ونقل هنا ابن كثير عن ابن حزم أنه قال : ((هذا نص - أي هذا القول من النبي عليه الصلاة والسلام - في أنها فُتحت صلحاً لا عنوة)) .

((قلتُ)) ؛ القائل ابن كثير .

((هذا أحد أقوال العلماء وهو الجديد من مذهب الشافعي . واستدل على ذلك أيضاً بأنها لم تُخَمَّس ولم تُقسم)) ؛ يعني لم يكن هناك قسائم ، والغنائم تكون في الجيش ؛ عندما يوجف بالجيش والركاب ويكون هناك قتال تكون غنائم ، فلم تُخَمَّس ولم يكن هناك غنائم . فهذا أيضاً من الأدلة التي ذُكرت على أنها فُتحت صلحاً لا عنوة .

قال : ((والذين ذهبوا إلى أنها فتحت عنوة استدلوا بأنهم قد قاتلوا من قريش يومئذ عند الخندمة وقتل منهم نحو عشرين رجلاً)) ؛ والخندمة : هي جبال في مكة الواحد منها يسمى

الخدمة وتُجمع الخنادم ، وهي تبدأ من جبل أبي قبيس وما وراءه ، وهي من الناحية الشرقية عن الحرم . فعند الخدمة كما سيأتي حصل قتال .

((واستدلوا بهذا اللفظ أيضاً : " فهو آمن ")) ؛ لأنها تدل على أن من دخل البيت فهو آمن ومن لم يدخل فهو عرضة للقتل ، فهذا يدل على أنها عنوة وليست صلحاً .

قال ابن كثير : ((والمسألة يطول تحريها ها هنا . وقد تناظر الشيخان في هذه المسألة . أعني تاج الدين الفزاري وأبا زكريا النووي . ومسألة قسم الغنائم)) ؛ يعني هذه حصل فيها مناظرة وأيضاً خلاف بين أهل العلم . وابن القيم رحمه الله تعالى له تحقيق بديع لهذه المسألة وكلام موسّع في كتابه الزاد ، وخلص إلى القول بأنها فتحت عنوة بإيجاف الخيل والركاب لا صلحاً ، وساق هناك رحمه الله تعالى الدلائل والشواهد وذكر أن هذا هو قول جمهور أهل العلم ، وأطال رحمه الله تعالى في بسط هذه المسألة .

قال رحمه الله :

[والغرض أنه ﷺ أصبح يومه ذلك سائراً إلى مكة ، وقد أمر ﷺ العباس أن يوقف أبا سفيان عند خطم الجبل ، لينظر إلى جنود الإسلام إذا مرت عليه . وقد جعل ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ﷺ على المقدمة ، وخالد بن الوليد ﷺ على الميمنة ، والزبير بن العوام ﷺ على الميسرة ، ورسول الله ﷺ في القلب ، وكان أعطى الراية سعد بن عبادة ﷺ ، فبلغه أنه قال لأبي سفيان حين مر عليه : يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة . والحرمة هي الكعبة . فلما شكأ أبو سفيان ذلك إلى رسول الله ﷺ قال : " بل هذا يوم تعظم فيه الكعبة " . فأمر بأخذ الراية من سعد فتعطى علياً ، وقيل الزبير ، وهو الصحيح . وأمر ﷺ الزبير أن يدخل من كداء من أعلى مكة وأن تُنصب رايته بالحجون

، وأمر خالداً أن يدخل من كُدى من أسفل مكة، وأمرهم بقتال من قاتلهم . وكان
عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، قد جمعوا جمعاً بالخدمة فمر
بهم خالد بن الوليد فقاتلهم ، فقتل من المسلمين ثلاثة وهم : كرز بن جابر من بني
محارب بن فهر ، وحبيش بن خالد بن ربيعة بن أصرم الخزاعي ، وسلمة بن الميلاء الجهني
ﷺ . وقتل من المشركين ثلاثة عشر رجلاً ، وفرّ بقيتهم] .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : ((والغرض أنه ﷺ أصبح يومه ذلك سائراً إلى مكة ، وقد
أمر ﷺ العباس أن يوقف أبا سفيان عند خطم الجبل لينظر إلى جنود الإسلام إذا مرت
عليه)) ؛ ومراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يرى أبا سفيان هذه الجيوش وهذه الخيل وهذه
الأعداد والمنّة التي منّ الله ﷻ بها على رسوله وعلى المؤمنين ، فأمره أن يوقف أبا سفيان عند
خطم الجبل أي أنف الجبل وهو مكان مضيق بحيث يرى ويطلع على الجميع وهم يمرون
والحديث في صحيح البخاري ، وجاء في رواية لهذه اللفظة ((عند حطم الخيل)) بدل خطم
الجبل . قال الحافظ : " وهي رواية الأكثر " ، وحطم الخيل : ازدحامها .

قال : ((وقد جعل ﷺ أبا عبيدة ابن الجراح ﷺ على المقدّمة ، وخالد بن الوليد ﷺ
على الميمنة ، والزبير بن العوام ﷺ على الميسرة ، ورسول الله ﷺ في القلب ، وكان
أعطى الراية - علم الجيش - سعد بن عبادة ﷺ فبلغه أنه قال لأبي سفيان حين مر
عليه : يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة - يعني القتال - اليوم تستحل الحرمة والحرمة هي
الكعبة ، فلما شكأ أبو سفيان ذلك إلى رسول الله ﷺ قال : " بل هذا يوم تعظّم فيه
الكعبة " . فأمر بأخذ الراية من سعد فتعطى علياً ، وقيل الزبير وهو الصحيح . وأمر
ﷺ الزبير أن يدخل من كداء من أعلى مكة وأن تنصب رايته بالحجون ، وأمر خالداً أن

يدخل من كُدي من أسفل مكة ، وأمرهم بقتال من قاتلهم)) ؛ يعني من تصدى للمسلمين مقاتلة يُقاتل ، ومن سواهم لا يُقاتلون .

قال : ((وكان عكرمة ابن أبي جهل ، وصفوان ابن أمية ، وسهيل ابن عمرو ، قد جمعوا جمعاً بالخدمة)) والخدمة عرفناها : الجبال التي شرقي الحرم .

((فمر بهم خالد بن الوليد فقاتلهم ، فقتل من المسلمين ثلاثة وهم : كرز بن جابر من بني محارب بن فهر ، وحُبَيْش بن خالد بن ربيعة بن أصرم الخزاعي ، وسلمة بن الميلاء الجهني ، رضي الله عنه . وقتل من المشركين ثلاثة عشر رجلاً ، وفرَّ بقيتهم)) ؛ كرز ابن جابر رضي الله عنه مرَّ معنا له قصة في غزوة بدر الأولى : حينما عدى على إبل للمسلمين قبل إسلامه وساقها فلحقه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ففرَّ بالإبل وفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لم يدركوه ، ثم بعد ذلك منَّ الله عليه بالإسلام وحصل بعد ذلك أن جاء العرثيون وقد أصابتهم الأمراض والأسقام فأذن لهم عليه الصلاة والسلام أن يكونوا عند إبل الصدقة يشربون من أبوالها وألبانها ، فلما استصحوا وشفوا من أمراضهم قتلوا الراعي وساقوا الإبل ، فعلم النبي عليه الصلاة والسلام فأرسل في إثرهم عشرين من الصحابة رضي الله عنهم وأمر عليهم كرز ابن جابر رضي الله عنه الذي قبلها بسنيات قليلة قام بالأمر نفسه - أخذ الإبل والفرار بها - فردَّ رضي الله عنه الإبل التي أخذها هؤلاء ورجع بهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقودهم ويسوق الإبل .

فكرز ابن جابر رضي الله عنه استشهد في فتح مكة ومعه حُبَيْش ابن خالد وسلمة بن الميلاء .

قال رحمه الله :

[ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة وهو راكب على ناقته وعلى رأسه المغفر ، ورأسه يكاد يمسُّ مقدمة الرحل من تواضعه لربه صلى الله عليه وآله وسلم . وقد آمن رضي الله عنه الناس إلا عبد العزى بن خطل ،

وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، ومقيس بن صبابه ، والحويرث بن نقيذ ، وقينتين لابن خطل وهما فرتنا وصاحبتهما، وسارة مولاة لبني عبد المطلب ، فإنه ﷺ أهدر دمايهم وأمر بقتلهم حيث وجدوا حتى ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة ، فقتل ابن خطل وهو متعلق بالأستار ، ومقيس ابن صبابه ، والحويرث بن نقيذ ، وإحدى القينتين، وآمن الباقون . ونزل ﷺ مكة واغتسل في بيت أم هانئ وصلى ثماني ركعات يسلم من كل ركعتين ، فقل إنهما صلاة الضحى وقيل صلاة الفتح . قال السهيلي : وقد صلاها سعد بن أبي وقاص في إيوان كسرى ، إلا أنه صلى ثماني ركعات بتسليم واحد . وليس كما قال ، بل يسلم من كل ركعتين كما رواه أبو داود . وخرج ﷺ إلى البيت فطاف به طواف قدوم ولم يسع ولم يكن معتمراً . ودعا بالمفتاح ، فدخل البيت وأمر بإلقاء الصور ومحوها منه ، وأذن بلال يومئذ على ظهر الكعبة ، ثم رد ﷺ المفتاح إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة . وأقرهم على السدانة . وكان الفتح لعشر بقين من رمضان . واستمر ﷺ مفطراً بقية الشهر يصلي ركعتين ، ويأمر أهل مكة أن يتموا ، كما رواه النسائي بإسناد حسن عن عمران بن حصين . وخطب ﷺ الغد من يوم الفتح فبين حرمه مكة وأنها لم تحل لأحد قبله ولا تحل لأحد بعده ، وقد أحلت له ساعة من نهار ، وهي غير ساعته تلك حرام] .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : ((وقد دخل رسول الله ﷺ مكة وهو راكب على ناقته وعلى رأسه المغفر)) ؛ المغفر : ما يلبسه المُقاتل على رأسه . فدخل عليه الصلاة والسلام وعلى رأسه المغفر ، وفي غزوة أحد كان عليه الصلاة والسلام لابساً المغفر وفوق المغفر لابساً البيضة ، والبيضة : هي الخوذة التي توضع على الرأس لتقي رأس المقاتل من السيوف أو النبل أو نحو ذلك ، ومرّ معنا أن البيضة هُشمت على رأسه .

قال : ((ورأسه يكاد يمس مقدمة الرجل)) ؛ لما دخل إلى مكة هذا البلد العظيم الذي نشأت فيه الدعوة وأوذي فيه الأذى العظيم ثم يدخل في هذا اليوم فاتحاً - وعادة الفاتحين في مثل هذا المقام ومثل هذا الفتح العظيم والظهور على الأعداء شأن آخر - لكن النبي عليه الصلاة والسلام دخل مطأطأاً رأسه يكاد يمس رأسه مقدّمة الرجل تواضعاً لله ﷻ ، وجاء في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ وهو على راحلته سورة الفتح.

((وقد أمّن الناس)) ؛ أمان عام لجميع الذين في مكة ، واستثنى نفرأ يقتلون حتى ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة لما كان منهم من شراسة وعداوة ومراغمة ومعاندة لدين الله ﷻ وصدّ عن دين الله وأذى بالغ للمسلمين ، فاستثنى منهم : ((عبد العزى ابن خطل ، وعبد الله ابن سعد ابن أبي سرح ، وعكرمة ابن أبي جهل ، ومقيس ابن صبابه ، والحويرث ابن نقيذ ، وقينتين لابن خطل وهما فرتنا وصاحبتهما ، وسارة مولاة لبني عبد المطلب ، فإنه ﷺ أهدر دمائهم وأمر بقتلهم حيثما وجدوا ، حتى ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة)) .

قال : ((فقتل ابن خطل وهو متعلق بالأستار)) .

((ومقيس ابن صبابه)) ؛ قتله نميلة ابن عبد الله الليثي وهو ابن عمّه . ومقيس ابن صبابه كان قد أتى إلى النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة وأظهر الإسلام وطالب بدية قتيل من قرابته كان مسلماً وقتل من أحد المسلمين خطأً ، فأعطاه النبي عليه الصلاة والسلام الدية ، فأخذها ثم ذهب وقتل القاتل وفرّ إلى مكة ، ثم قُتل يوم الفتح على الكفر بالله ﷻ .

((والحويرث ابن نقيذ ، وإحدى القينتين))

قال : ((وآمن الباقون)) ؛ هناك حديث فيه خبر هؤلاء الذين أهدر النبي عليه الصلاة والسلام دمهم ، فمنهم من منّ الله ﷻ عليه بالإسلام ، ومنهم من قُتل على كفره وشركه بالله ﷻ وهو في النسائي ومسنّد أبي يعلى ومستدرک الحاكم بإسناد لا بأس به عن سعد بن

أبي وقاص رضي الله عنه قال : ((لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ، إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَأَمْرَاتَيْنِ وَقَالَ: «اقتُلُوهُمْ، وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَطَلٍ وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ»، فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَطَلٍ فَأَذْرَكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا، وَكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُ، وَأَمَّا مَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ فَأَذْرَكَهُ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ، وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحْرَ، فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ، فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ: أَخْلِصُوا، فَإِنَّ آهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا. فَقَالَ عِكْرِمَةُ: وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ الْبَحْرِ إِلَّا الْإِحْلَاصُ، لَا يُنَجِّنِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا، إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ، فَلَأَجِدَنَّهُ عَفْوًا كَرِيمًا، فَجَاءَ فَأَسْلَمَ ، وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ، فَإِنَّهُ احْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْفَقَهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايَعِ عَبْدَ اللَّهِ، قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلَاثًا كُلَّ ذَلِكَ يَأْتِي، فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يُقَوْمُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَأَيْتُ كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ» فَقَالُوا: وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا فِي نَفْسِكَ، هَلَّا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَائِنَةٌ أَعْيُنٍ» .

قال ابن كثير : ((ونزل مكة رضي الله عنه واغتسل في بيت أم هانئ)) ؛ أم هانئ : بنت أبي طالب ، ابنة عم النبي رضي الله عنه ، أسلمت عام الفتح رضي الله عنها ، وزوجها لما فتحت مكة فرّ من مكة إلى جهة نجران وبقي هناك حتى هلك على الكفر والشرك بالله وعجل .

((وصلى ثماني ركعات يسلم من كل ركعتين)) ؛ والحديث ثابت في الصحيحين من حديث أم هانئ نفسها رضي الله عنها .

((فقيل إنها صلاة الضحى ، وقيل صلاة الفتح)) ؛ قال ابن القيم رحمه الله تعالى في زاد المعاد : "وإنما هذه صلاة الفتح ، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلدًا صلّوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلّم " .

((قال السهيلي - في كتابه الروض الأنف - : وقد صلاها سعد بن أبي وقاص في إيوان كسرى ، إلا أنه صلى ثماني ركعات بتسليم واحد . وليس كما قال ، بل يسلم من كل ركعتين كما رواه أبو داود)) ؛ وقال أيضا الحافظ ابن كثير في البداية : " وجاء التصريح بأنه كان يسلم من كل ركعتين وهو يردُّ على السهيلي وغيره ممن يزعم أن صلاة الفتح تكون ثمان ركعات بتسليمة واحدة .

ولما دخل عليه الصلاة والسلام مكة وجاء حول البيت كان في ذلك اليوم حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً ، فكان بيده عليه الصلاة والسلام قوس فيضرب تلك الأصنام بالقوس الذي في يده فتساقط على وجهها وهو يقول : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] ، فتحطمت جميع الأصنام وانتهى أمر الجاهلية في بلد الله الحرام .

قال : ((وخرج إلى البيت فطاف به طواف قدوم ، ولم يسع ، ولم يكن معتمراً ، ودعا بالفتح)) ؛ وكان المفتاح مع عثمان ابن طلحة بن أبي طلحة وكانت عندهم سدانة البيت ، فطلب منه المفتاح .

((فدخل البيت وأمر بإلقاء الصور ومحوها منه)) ؛ كانت داخل البيت صور ، ومن ضمنها صورة يقولون لإبراهيم وإسماعيل وهما يستقسمان بالأزلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((والله ما استقسم بالأزلام قط)) فكل ذلك حطمه وأتلفه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((وأذن بلال يومئذ على ظهر الكعبة))

((ثم رد ﷺ المفتاح إلى عثمان ابن طلحة ابن أبي طلحة)) وقال كلاماً معناه هذا يوم البر والوفاء ، وأعطى المفتاح لعثمان ابن طلحة .

((وأقرهم على السدانة)) ؛ السدانة : هي خدمة البيت والعناية به .

قال : ((وكان الفتح لعشر بقين من رمضان)) ؛ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : " وَالَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ السِّيَرِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي عَاشِرِ رَمَضَانَ وَدَخَلَ مَكَّةَ لِتِسْعِ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَلَّتْ مِنْهُ " ، وهذا مثل قول ابن كثير هنا حيث قال : ((لعشر بقين من رمضان)) .

قال : ((واستمر ﷺ مفطراً بقية الشهر يصلي ركعتين ، ويأمر أهل مكة أن يتموا ، كما رواه النسائي بإسناد حسن عن عمران بن حصين ﷺ)) ؛ استمر مفطراً عليه الصلاة والسلام على اعتبار أنه مسافر ، وأيضاً يصلي صلاة المسافر فكان يقصرها ، أما أهل مكة فأمرهم أن يتموا الصلاة لأنهم مقيمون .

قال : ((وخطب ﷺ الغد من يوم الفتح فبين حرمة مكة ، وأنها لم تحل لأحد قبله ﷺ ولا تحل لأحد بعده ، وقد أحلت له ﷺ ساعة من نهار ، وهي غير ساعته تلك حرام)) ؛ فبين حرمة هذا البلد ومكانته العظيمة .

وكان مما قال عليه الصلاة والسلام للناس في خطبته تلك : ((ما ترون أبي صانع بكم ؟)) قالوا: خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : ((أقول كما قال يوسف : لَا تَتْرِبْ عَلَيْنَا الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)) فقابل هؤلاء بالعمو والصفح صلوات الله وسلامه عليه . فخرجوا - كما جاء في بعض الروايات - كأنما نشروا من القبور لأن الجميع كانوا يتوقعون أو يظن الكثير منهم أنهم سيقتلون ؛ فكان لهذه الكلمة أثر كبير جداً على نفوس القوم ، فدخل الناس في ذلك اليوم في مكة في دين الله أفواجاً .

وأيضاً القبائل في خارج مكة كان موقفهم مثل ما يعبر البعض "محايد" ، ينظرون ماذا سيكون بين النبي ﷺ وبين قومه قريش ويتربقون الحال ، فلما حقق الله ﷻ هذا النصر العظيم وأصبح للإسلام القوة العظيمة والشوكة الكبيرة بدأ الإسلام أيضاً يدخل في القبائل ، جاء في صحيح البخاري عن عمر ابن سلمة ﷺ قال : ((وَكَاثَتِ الْعَرَبُ تَلَوُّمَ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اَتْرَكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ)) .

من أيضاً الأخبار التي تُذكر هنا : أن الأَنْصار لما حصل الفتح وكان النبي عليه الصلاة والسلام حصل عندهم شيء من التخوف أن يبقى النبي عليه الصلاة والسلام في مكة بلده ولا يرجع معهم إلى المدينة ، وبلغ النبي عليه الصلاة والسلام هذا التخوف الذي كان عندهم فقال لهم : ((معاذ الله ، المحيا محياكم والممات مماتكم)) فرجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة .

وأيضاً من الأخبار التي تُذكر هنا : أن النبي عليه الصلاة والسلام لما فتح مكة ، انطلق أبو بكر الصديق بوالده رجلاً مسنناً كُفَّ بصره وجاء يقوده إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو لم يسلم يوماً ، فلما جاء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، قال له ﷺ : ((لماذا جعلت هذا الشيخ يأتينا ؟ ألا أخبرني أنا الذي آتية)) فتأمل هذه الكلمة كم يكون لها من أثر ، وكبير السن عندما يُعامل بالاحترام والتقدير يكون لهذا أثر في قلبه وفي نفسه ، وهذا يقصّر فيه كثير من الدعاة وطلبة العلم حتى مع أقاربهم ، فقال هذه الكلمة عليه الصلاة والسلام ثم قال له : ((تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟)) فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . ودخل في الإسلام ؛ فكان ﷺ مسلماً وابنه مسلماً وابن الابن مسلماً والحفيد مسلماً وكانوا كلهم صحابة ، وقالوا لم يقع مثل هذا لبيت غير بيت أبي بكر الصديق ﷺ .

قال رحمه الله :

[وبعث ﷺ السرايا إلى من حول مكة من أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام .

(بعث خالد إلى بني جذيمة) ؛ وكان في جملة تلك البعوث : بعث خالد إلى بني جذيمة الذين قتلهم خالد حين دعاهم إلى الإسلام فقالوا : صبأنا ، ولم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فوداهم رسول الله ﷺ وتبرأ من صنيع خالد بهم] .

قال رحمه الله : ((بعث ﷺ السرايا إلى من حول مكة من أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام ، فكان في جملة تلك البعوث بعث خالد -أي بن الوليد - إلى بني جذيمة الذين قتلهم خالد حين دعاهم إلى الإسلام فقالوا : صبأنا ، ولم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا)) ؛ يعني أرادوا أن يقولوا أسلمنا ودخلنا في الدين لكنهم ما يعرفون ماذا يقولون ، وكانوا يسمعون نقد قريش لمن أسلم يقول : " صبأ فلان " يعني أسلم ، فأرادوا أن يقولوا أسلمنا فلم يعرفوا ، فقالوا صبأنا صبأنا ؛ فقتلهم خالد .

((فوداهم رسول الله ﷺ وتبرأ من صنيع خالد بهم)) ؛ وتأمل هنا التبرأ من الصنيع والحديث في صحيح البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . يقول الحافظ ابن حجر : " أَنَّ التَّبْرُؤَ مِنَ الْفِعْلِ لَا يَسْتَلْزِمُ إِثْمَ فَاعِلِهِ وَلَا إِزَامَةَ الْعَرَامَةِ ، فَإِنَّ إِثْمَ الْمُحْطِئِ مَرْفُوعٌ وَإِنْ كَانَ فِعْلُهُ لَيْسَ بِمَحْمُودٍ " يعني خالد ﷺ اجتهد في قتلهم ، لكن الفعل خطأ وتبرأ النبي ﷺ من الفعل ، لكن لا يُؤْتَمُّ خالد لأنه ﷺ فعل ذلك عن اجتهاد ، واجتهد إن أصاب له أجران وإن أخطأ فله أجر واحد وذنبه مغفور . ولهذا تبرأ عليه الصلاة والسلام من الصنيع ولم يتبرأ من الفاعل .

قال رحمه الله :

[(بعث خالد إلى العزى) ؛ وكان أيضاً في تلك البعوث بعث خالد أيضاً إلى العزى ،
وكان بيتاً تعظمه قريش وكنانة وجميع مضر ، فدمرها رضي الله عنه من إمام وشجاع] .

وأيضاً كان من البعوث : بعث النبي ﷺ خالد أيضاً إلى العزى ؛ وهو صنم ووثن يُعبد من
دون الله .

((وكان بيتاً تعظمه قريش وكنانة وجميع مضر فدمرها رضي الله عنه من إمام شجاع)) ؛
جاء في سنن النسائي الكبرى ومسنند أبي يعلى ودلائل النبوة للبيهقي بإسناد حسن عن أبي
الطفيل عامر ابن واثلة رضي الله عنه قال : ((لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ
بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمُرَاتٍ، فَقَطَعَ
السَّمُرَاتِ وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ:
«ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا» ، فَرَجَعَ خَالِدٌ فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبَتْهَا أَمْعَنُوا فِي
الْجَبَلِ وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عُزَّى يَا عُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُزَيَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا ، تَحْتَفِنُ
التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ: «تِلْكَ الْعُزَّى» .))

ومما يذكره أهل العلم أن بعض الأصنام كانت الشياطين تكتنفها وتُخرج أصواتاً من جهتها
وتخاطبهم بأشياء وتعددهم بأمور ويظنون أن الذي يخاطبهم الصنم ، وإنما الذي يخاطبهم
شيطان من الشياطين ليضلهم بذلك عن دين الله وليمكن للشرك في قلوبهم .

قال رحمه الله :

[فصل : وكان عكرمة بن أبي جهل قد هرب إلى اليمن ، فلحقته امرأته وهي مسلمة وهي أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، فردته بأمان رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ، وكذا صفوان بن أمية كان قد فر إلى اليمن فتبعه صاحبه في الجاهلية عمير بن وهب بأمان رسول الله ﷺ فردّه ، وسيّره ﷺ أربعة أشهر ، فلم تمضِ حتى أسلم وحسن إسلامه ﷺ] .

في هذا الفصل ذكر المصنف رحمه الله تعالى ما يتعلق بعكرمة و صفوان ابن أمية وهم من النفر الذين أهدر النبي عليه الصلاة والسلام دمهم ؛ فأما عكرمة بن أبي جهل قال : ((قد هرب إلى اليمن ، فلحقته امرأته وهي مسلمة وهي أم حكيم بنت الحارث بن هشام فردته بأمان رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه)) ؛ ومّر معنا أنه فرّ وركب البحر إلى جهة الحبشة وفي الطريق حصل له ما حصل ورجع وعاهد الله ﷻ أن يأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويضع يده في يده وأن يُسلم ، فكان منه ذلك فأسلم وحسن إسلامه ﷺ .

وكذا صفوان ابن أمية ، وكان من الأعداء الألداء والخصوم المعاندين لرسول الله ﷺ ومّر معنا أنه قتل خبيب بوالده، ووالده أمية ابن خلف العدو اللدود للرسول عليه الصلاة والسلام ، وعمّه أيضاً أبي ابن خلف من الأعداء الألداء للرسول عليه الصلاة والسلام، وكلّ منهما قتل على الكفر بالله ﷻ ؛ الشاهد أن صفوان ابن أمية كان عدواً لدوداً للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فأهدر دمه وأمر أن يُقتل أينما كان ، فكان من خبره ((أن فرّ إلى اليمن ، فتبعه صاحبه في الجاهلية عمير ابن وهب بأمان رسول الله ﷺ فردّه ، وسيّره ﷺ أربعة أشهر)) يعني أمهله بالأمان هذه المدة مدّة أربعة أشهر ينظر في الأمر .

((فلم تمضِ حتى أسلم وحسن إسلامه)) ؛ يعني لم تكمل هذه الأربعة حتى أسلم وحسن إسلامه ﷺ .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

* * *